أول أكتوبر سنة ١٩٣٢
جمادى الثانية سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء السادس
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الثالث | شعارها : اعرف نفسك بنفسك | العدد ١٨

فـــؤاد الأول

الشخصية الخامسة

عبر الجارسي

يحتفل المصريون في اليوم التاسع من شهر أكتوبر بعيد الجلوس الملكي ، ويساهمهم الحفاوة بهذا العيد كل مصري يعيش في أي جانب من جوانب الأرض ؛ وكل شرقي يؤمن بزعامة مصر على جاراتها في الشرق ، وكل عربي أدركته سعادة الحياة ، فهيأت له في فترة من حياته — أن يكون من أولئك الذين تظلهم سماء مصر الصافية ، ويقلهم أديمها الخصيب .

ومن حق عيد الجلوس الملكي أن يثير البشر في هذه الجوانب ، وأن يطلق الغبطة على تلك النفوس ؛ وأن يكون له صدى في كل بقعة من الأرض ؛ ومن حقه إلى ذلك أن يكون مثار بحوث ضافية يزجيها الباحثون حديثاً مستفيضاً إلى الأجيال الآتية، حتى يدرك الأحفاد كيف استطاعت مصر — في كنف صاحب العرش العظيم — أن تزعم الشرق العربي كله ، وأن تكون لها السيادة الروحية على شعوبه وممالكه ؛ ثم ليدرك الأحفاد أيضا جلال النهضة التي حمل المليك لواءها الخفاق ، ومضى به في طليعة شعبه ليبلغ الأوج ؛ وينتهي به إلى صميم المجد والفلاح .

والواقع أن الباحث حين يريد أن يتأثر تلك العوامل التي تخلقها « عيد الجلوس » ليصورها ويسجلها — وهي عوامل فيها ما فيها من خير — إنما يرى لزاماً عليه أن يستهل القول بتصوير

تلك الشخصية الكاملة ـ شخصية المليك العظيم ـ لأنها فى الحق تمثل الروح التى تنفح المصريين بالحياة ، وتمثل القوة التى تجابههم مصر ألوان الصعاب ـ فى صراحة وصدق ـ حتى تقهرها وتتغلب عليها ، وتنتهى منها إلى الفوز المبين .

الأمير فؤاد

هيأت الأقدار السعيدة ـ فيما هيأته ـ لصاحب الجلالة أن تكون صلته بالشعب قائمة على دعامة من الخبرة والمعرفة الصادقة الصحيحة ، فكان أميراً يتابع الصلة بالخاصة والكافة معاً ، ويتخير من أولئك وهؤلاء من تتصل نفوسهم بالعلم ، ومن يتشحون إهاب الخلق القويم ، والكرامة الصحيحة .

فلم يكن مجلس « الأمير فؤاد » يخلو من عالم جهبذ ، أو أديب سرى القلم ، أو بحاثة متوقد الذهن ، أو محدث سليم القريحة حاضر البديهة ، أو منقب عن حقيقة علمية يعمل جهده فى سبيلها ؛ كذلك لم يكن ليأنس من باكورة حياته إلا إلى أولئك الذين يعملون للجماعة راضين غير متبرمين ، باذلين غير قانطين ؛ وفى هذا كله سر ما أودع فى نفسه الكبيرة من حب للعلم وصداقة للعلماء .

وإذا كانت صداقة العلماء تثير فى النفس شيئاً ما ، فالحق أنها تثير فى النفس حب « الديمقراطية » ، وتثير فيها الترفع عن مساوىء المجتمع ؛ ولقد نشأ « فؤاد » أميراً ديمقراطياً لا تتعجل نفسه السبيل إلى الكبرياء ، ولكنه احتفظ بعنصر النبل التليد ، فبقيت له روح صافية كالضوء ، ولكنها متى امتحنت فى حلبة الكرامة كانت صارمة أسرة ، قوية جبارة ، شديدة المراس .

ولقد خرج « فؤاد » عن طوق الإمارة ، وأتاحت الأقدار السعيدة لمصر أن يكون على أريكة العرش سلطاناً فملكاً ، فلم تتحور له ظاهرة من ظواهر حياته الجليلة ؛ وإنما بقى له هذا الخلق الرضى ، وتلك الديمقراطية الرائعة ، وهذا الحب البالغ للعلم والعلماء .

الملك : تعامل

ولقد احتفظ جلالته بهذه الميزة التى درجت معه من المهد ـ ميزة العلم والأدب ـ فلم نعرف له ساعة من هذه الساعات الضائعة التى يذكرها الذاكرون عن لهو الملوك ومجونهم ، أو حبوهم النادرة والمتندرين ، وإنما عرفنا أنه واحد الجادين الذين يتناولون كل شىء بمقدار ما تحتمله طبيعته ؛ وما نحسبنا بالمسرفين فى القول ، ولا بالناشرين لشىء مجهول ، حين نقول عن جلالة المليك : إنه يدع فراشه قبل أن تستيقظ الشمس ، وإنه يبدأ العمل فى مكتبه قبل أن تعمر الدواوين بصغار الموظفين ، وإنه حين يعمل رأيه السديد فى وجوه المسائل المنتهية إليه لا يترك الأمر الصعب باقياً على صعوبته وإعساره ، وإنما يقلبه فى جنبات ذهنه المدرك ، فإذا هو اليسر والسهولة ، وإذا إعساره يذهب هباءً منثوراً .

وليس هذا الدأب فى جلالته مقصوراً على مسائل السياسة ـ على الرغم من صعوبتها ـ وإنما هو دأب يتناول كل مسألة ؛ فله قدرته فى مسائل الاجتماع ، وقوته فى فروع العلم ، وفتوته فى الفلاحة ، وحكمته فى كل جانب غير تلك الجوانب .

وأولئك الذين وقفوا من هذه الجهود الجبارة عن كثب ، يقولون عن جلالة المليك إنه قلما يواتيه الهدوء الشامل يوماً بأكمله ؛ ذلك لأن جلالته لا يدع من مسائل الحياة مسألة واحدة دون أن يقلبها على وجوهها الكثيرة ؛ ولأنه ـ إلى ذلك ـ لا يحمد تأجيل عمل اليوم إلى الغد ، وإنما يلابس عمله الجيد فى ميقاته المحدود .

الملك الديمقراطى

ولقد حدثناك عن ديمقراطية المليك أنها ميزة من ميزاته التى عرف بها منذ كان أميراً يتصل بالخاصة ، ويدرس بالخاصة الكافة على ضوء اختبارات لا أثر فيها للحدس والتخمين ؛ ونذكر لك الآن أن جلالته طالما فاخر بهذه الميزة ، وكثيراً ما تحدث بنعمائها عليه ؛ فقد تحدث جلالته إلى المؤرخ الألمانى الذائع الصيت (أميل لدويج) ، ونشر المؤرخ حديث جلالته ، فإذا بالدنيا كلها تعلم عنه أنه « ملك يتقدس الديمقراطية » ، ويرى فيها الحياة السعيدة لجميع الشعوب .

وإذا كانت كلمات جلالته الناطقة بحبه للديمقراطية قد أتاحت للعالم أن يعرف له هذه الميزة النافعة ، فإن هنالك ألواناً أخرى تظهر فيها ديمقراطية جلالته ، وقد بلغت الأوج . . ففى تحياته للشعب حين يطلع عليه فى إحدى المناسبات ما يقهر طبيعة التجهم المألوفة فى غيره من الملوك ، وفى مساهمته بالحدب على عظماء أمته وعلمائها الأفذاذ حين تتناولهم الكوارث ، أو تصيبهم أرزاء الزمن ، ما يحقق لنا أن لجلالته قلباً يجمع إليه عواطف النبل كله ، وأن له حساً تحتشد إليه ظواهر الرقة بأجمعها ، وهذه العواطف قلما يحتملها من لم يلتئم إحساسه مع الجماعة ، وقلما يستطيبها المتمجرف الجبار .

عاطفة البر والرحمة

إن الرحمة متى لقيت طريقها معبَّداً إلى نفوس الملوك ، كانت رحمة ممتازة لا تنفح التافه ، ولا تدع فى اليد غُلا يغلها عن البسط والبذل الكريمين .

ولقد طالما لمس الشعب من رحمة المليك وحدبه ، ما فيه غنية عن القول والتسجيل ، بل إنه لحق أن نقول بأن عاطفة الرحمة فى جلالة الملك قلما تجد لها نظيراً بين أنداده ؛ فأولئك الذين برزوا إلى المجد العلى وانتهوا منه إلى الرمس فقراء ، بل أولئك الذين قعدت بهم الدنيا عن رؤية ألوانها المشرقة ، كثيراً ما حور المليك من بأسائهم ، وكثيراً ما دفع إليهم سيلا من البشر ، وكثيراً ما غمرهم فى عباب من رغد العيش ، وهناءة المقام .

ولسنا نحدثك كيف يكون الفيض حافلا ، ولا كيف تكون الرحمة كالديمة الواطفة ؛ ولكن المآثر التي ذاعت عن جلالته تحدثك بأنه لم يرض لكرامة العلم أن تهون في بيت المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ؛ إثر انتهائه إلى جوار ربه ، وإنما أقام جلالته لهذا البيت سناداً من الحياة ، هو هذا السناد الذي طوح بعوامل اليأس الكامن في نفوس أسرة عاش عائلها للعلم والبذل ، ومات دون أن يبقى له من المال ما يحمل جثمانه إلى قبره .

بل ما لنا نذكر الرحمة فيما يلابس المصريين خاصة . . ؟ إن في حدب المليك جانباً انسانياً يشمل العالم بأسره ؛ ففي الساعة التي انقرضت فيها عاصمة اليابان ، ومادت في جوف الأرض إثر الزلزال الهائل الذي نكبت به عام ١٩٢٣ . . في هذه الساعة كانت الدنيا كلها تبكي فجيعة البلد الشرقي المنكوب . . . أترى أن جلالة الملك قد اكتفى بالعزاء المألوف ؟ لا ! إنه حفظه الله لم يجد من نفسه الكبيرة إلا أنها صميم البر والرحمة ، ولم يتسمع منها إلا كلمة البذل ؛ فإذا بيده الكريمة النفاحة تزجي إلى المنكوبين ما عوض عليهم هدوءاً مفقوداً ، وما حقق لهم رغداً مفشوداً .

وأولئك الذين يتصلون بالقصر الملكي ألا دعهم يتحدثون إليك عن هذه العطايا المستورة التي يفتح بها جلالته أبواب الضوء لمن غمرتهم الحياة بالقتام ؛ فإنها من الكثرة حتى لتضل نفسه في حصرها الأقلام والأفهام .

الدين والملك

وإنه لمن خير مصر ، بل إنه لمن خير المسلمين جميعاً ، أن يكون جلالة المليك المعظم من أولئك الذين يجد الدين مستقره في طوايا نفوسهم ، ومنزلته في شغاف قلوبهم ، ومقامه في قرارة أفئدتهم ؛ فجلالته حفيظ على شعائر الاسلام من أن يتجه إليها سوء ، أو يصيبها اختلال ؛ ذلك لأن في الكبيرة إيماناً عميقاً ، ويقيناً وافراً .

وليس ثمة من دلالة أبلغ على تحقيق قوة النزعة الدينية في جلالته من هذه اليد التي يشيد بها من صرح الاسلام كلما دعت الظروف الملابسة إلى تشييد صرح جديد ؛ فقد كانت هذه اليد الجليلة موفورة السخاء يوم دعي الداعون إلى تجديد المسجد الأقصى ، ويوم تحدث المتحدثون بأن طوارىء الحدثان قد أفقت مراسيها على المسجد النبوي في المدينة ؛ فكانت يداً موفورة السخاء ؛ لأنها وضعت الدعامة لمسجد القدس ، وأزاحت عوامل الفناء عن مسجد الرسول الكريم .

ثم ألا ترى في حرص جلالته على أن يظل الأزهر معهداً جامعاً للدين ، ألست ترى في ذلك مظهراً سامياً من مظاهر حدبه على الاسلام ورعايته الفائقة له . . ؟

ولكن ، هل تريد مثلا آخر :

إذن خير لنا أن نقتصد معك في القول ، وأن نلقي بين يديك بالحجة الحاسمة فتقول لنا إن

صاحب الجلالة الملك لا يستطيب الخمر ، ولا يتقبلها ، ولا يقدمها على موائده ، وإنما يكون الشأن عنده حين يريد أن يشرب نخب واحد من الحاكمين أن ينهل الماء القراح .

وحسبنا أن نقرر — فى صدق ويقين — أن جلالته طليعة الرائدين عن الدين وكفى .

الملك العامل المثقف

فى طبيعة جلالة الملك ميل إلى العلم والبحث ، ولجلالته آمال واسعة يعمل دائباً على تحقيقها لمنفعة شعبه ، وسحق الأمية فيه ؛ وليست هذه المعاهد العديدة التى تزدهر بها البلاد إلا أثراً من آثاره ، وصدى لرغائبه ؛ وأولئك العلماء الذين يختلفون إلى مصر من أقطار الدنيا ، قد بهرتهم من جلالته إحاطته بما يعلمون ، حتى ليرى الواحد منهم حين يجلس إلى جلالته أنه يمثل التلميذ حيال أستاذه الجهبذ ؛ ذلك أن صاحب الجلالة قلما يفوته رأى جديد ، وقلما تفلت من رأسه فكرة علمية طارئة ، أو مذهب أدبى محدث .

وإذا كانت الجامعة المصرية فى عهدها القديم قد استطاعت أن تمد الجامعة الجديدة بالرجال الأفذاذ ، والأساتذة القادرين ، فذلك فضل يعود إلى يد المليك التى بسطت ظلها على تلك الرءوس الراضية بالعلم ، ويعود إلى عنايته الفائقة التى أتاحت لهذه الجامعة أن تكون كوكباً لامع الضوء ، قوى الشعاع .

وإذا كانت حياة الكشف العلمى فى مصر قد كانت خيالا من هذه الأخيلة التى تمر كالطيف ، فإن جلالة الملك قد أتاح لها أن تكون حقيقة لا ريب فيها ؛ ذلك حين شمل برعايته السامية تلك الرحلة الشاقة التى قام بها الرحالة العظيم الأستاذ أحمد حسنين بك ، مجتازاً فى الصحراء طريقاً غير مألوف ، مكتشفاً فيها شعبة من الناس لم يعرف بها أحد من قبل .

ألا ترى أن هذه الرعاية السامية وحدها ، هى التى مكنت للرحالة المصرى النابه أن يتغلب على عوامل الإخفاق ، وأن يستخف بالشدائد ، وأن يعود إلى وطنه فائزاً بما علل النفس به ، وأرفقها بأسبابه ؟

ثم دعنا نذكر لك أن صاحب الجلالة الملك قلما ينتهى من يومه دون أن يشغل فيه بعض وقته باستيعاب كتاب جديد ، أو دراسة فكرة طريفة ؛ ودعنا نذكر لك أن مكتبة القصر الملكى ليست تحفة من تحفه النادرة التى وضعت للزينة فحسب ، وإنما هى تمثل فى كتبها الكثيرة جمهرة من العلماء الصامتين ، الذين تشرفهم ملمسة المليك ، والذين يجدون أقدارهم محفوظة فى قلبه ووجدانه .

عصر النشاط

ولقد كانت هذه الروح العلمية التى يحتملها المليك راضياً مغتبطاً ، كانت — وما تزال — داعية إلى توجيه الشعب وجهة النشاط العلمى الهائل .

وهذا حق كل الحق ؛ لأنك إذا استعرضت الحياة المصرية على ألوانها قبل أن يقتعد جلالته أريكة العرش، ثم استعرضتها فى هذه الأعوام التى انتهى فيها زمام مصر إلى يديه الكريمتين، لرأيت ثم رأيت حياة تتحور من قعود إلى حركة ، ومن ركود إلى نشاط ، ومن سبات عميق إلى يقظة دائمة .

وهذه الجماعات التى اصطنعها هذا النشاط، والتى يعيش جلها فى كنف الرعاية السامية، ألا تدل دلالة صريحة على أن مصر قد لقيت فى العهد « الفؤادى » أسباباً من الجدة ، وأسباباً أخرى من الرشد والرشاد .. ؟

وليس علينا أن نحصى لك تلك الجماعات ، ولكنا نقتصدمعك فى القول ؛ فنسجل لك أن فناً واحداً من فنون الحياة لم ينلت من عناية الملك المعظم، فهنالك جمعية للاقتصاد، وأخرى للطب ، وثالثة للجغرافيا ، ورابعة للزراعة ، وخامسة للفنون، وسادسة وسابعة لأشباه هذه الجميات التى ينفخ فيها العطف الملكى أنفاس الحياة والبقاء .

شخصية الملك

ومن حق العالم أن يتساءل : كيف استطاعت مصر أن تخطو هذه الخطوات الجريئة الرحيبة فى تلك الحقبة التى لا تساوى فى عمر الزمن شيئاً ، ومن حق العالم أن يتساءل عن هذه القوة التى هيأت للمصريين أن يكونوا طليعة الشرق، وأن تكون لهم مكانة سامية بين الشعوب ؛ ولكن العالم متى أدرك أن شخصية الملك وحدها هى التى جعلت من مصر منارة عالية ، وكوكباً زاهياً ، عرف الحقيقة كاملة ، وعرف السر بعيداً عن الستر والحجاب.

إن شخصية « الملك فؤاد » تدعو من يعرفها إلى إكبارها الأكبار كله ، وتدعو من لا يعرفها — وقل أن يجهلها أحد فى الوجود — إلى عرفانها والطلوع على مزاياها الباهرة الجليلة، لأنها ليست شخصية ملك فحسب ، وإنما هى شخصية ملك ورجل يعنى بشعبه ، ويعنى بنفسه : فإذا أراد للشعب شيئاً فإنما يريد له الخير ، وإذا أراد لنفسه شيئاً ، فإنما يريد لها العيش فى موطن الكمال .

ولقد عرفت هذه الشخصية الكبيرة كيف تغزو قلوب الناس فى كل صقع حلت به، وفى كل بلد وفدت عليه ؛ وهذه الرحلات التى صرف فيها الملك جانباً من أيامه فى غير بلد من بلدان الغرب ، قد أتاحت لشخصيته الممتازة أن تكون فى آفاق هذه الدول كالمشعل الوضاء ، وقد أتاحت لأبناء هذه الدول أن يعرفوا أى ملك يتصدر المصريين فى باحة المجد ، وأى عقل يتعهد حياتهم بالنماء ، وأية يد تبنى لهم — على قمة التردد — الصرح المشيد .

عاش الملك ؛ وبقيت له السعادة موفورة جزيلة . ؟

عبد العزيز الدسوقى